ابو العلاء المعرى وعلم النحو

كتب لأبي العلاء صنوف من المجد العلمي .

كان شاعراً مكثراً مفيضاً خلف ديوانين من اوسع الدواوين فى العربية — ومع ذلك وجد من العلماء من يقول — أبو العلاء حكيم وليس بشاعر — وكان فيلسوفاً حكيماً حدد لنفسه رأياً في الحياة وأملى عليه رأيه خطة من العيش التزمها وصبر عليها ووفى بها — ومع ذلك جحدت عليه فلسفته وقيل مضطرب في الرأي متقلب في الحكم وقيل برم بالحياة تملي عليه السوداء — ودع عنك من رماه بالالحاد والزيغ وسوء الايمان .

وكان عالماً لغوياً فكان هذا أبين مجد له واشرقه . ومذ كان ابو العلاء بهر الناس علمه باللغة وتصرفه فيها واحاطته بعلومها ولم يتعلق عليه في هذا متعلق .

ولكن البحث الجديد يبدو كانه يعكس الطريق على السابقين في تقدير علم أبي العلاء وتقويم مواهبه ودرس آثاره .

فاما فلسفته فقد وجدت من استنبطها واحاط بها وصورها وحدة متماثلة متكاملة تستحق أن تجد منزلتها في تاريخ الفلسفة وتاريخ الفكر وتاريخ الحياة أيضا .

ومذ بدأ الدكتور طه حسين — وهو ناشيء — يكشف عن فلسفة المعري ويؤلف بين اشتاتها ويظهر الناس على جملتها ، وفلسفة أبي العلاء حقيقة ماثلة لدى الناس لا يجحدونها وان اختلفوا في تقويمها .

وأما شعر أبي العلاء فللادباء اليوم رأي حسن في تقديره وأنه الشعر علا عن اللغو وسما بما فيه من رأي وبحث في أمور الحياة .

وانه الشعر العربي الذي يقدم للناس نثراً فيقبلون عليه راضين يمتعون بمعانيه قلوبهم وعقولهم .

وإن الغربيين اذا ترجموا من الشعر العربي لم يجدوا لديهم أقوم من شعر المعري .

فقد كشفت فلسفة المعري وقوم شعره — أما علومه اللغوية وهي المع آيات مجده فماذا دُرس منها ؟ لقد زحزحت عن مكانها وكانت الأولى . وكأنما نشر ابو العلاء فيلسوفاً وشاعراً وقد كان يحيا عالماً لغويا .

وانا أحاول هنا أن أدرس طرفاً يسيراً من أطراف علوم أبي العلاء اللغوية — وهو العلم الذي سماه المتقدمون (بالعربية) وشمله كتاب سيبويه ونسميه الآن علم النحو والصرف أو « علم النحو » ونكتفي .

وأريد أن أكتفي من البحث ببيان موقف أبي العلاء من هذا العلم ومن سبل بحثه في فقه العربية .

أرضي أبو العلاء هذا الاسلوب من البحث أم كرهه؟ فان كان قد رضي فهل أحدث فيه بحثاً أو زاده فصلاً ؟ وان كان كرهه فهل بدل منه شيئاً أو حاول ان يبدله ؟ .

تعلم أبي العلاء النحو بالشام

بكر أبو العلاء إلى درس النحو صبياً — كما كان الناشئون يبكرون — وتلقى أول دروسه على والده الشيخ عبد الله بن سليمان ولم يكن نحوياً مذكوراً ولا عرف له رأي في النحو وإنما تعلم منه ما كان ينبغي أن يتعلم فقيه يتهيأ للقضاء .

وكان الشيخ عبد الله فقيهاً قاضيا عربي النجر يفتخر بنسبه من تنوخ .

وكان أشياخ العرب يقبلون على نحو الكوفة ويعرضون عن نحو البصرة نحو الموالي وكان الفقهاء يحبون نحو الكوفة ايضاً لأن الكوفيين أكثر رواية وجمعا للآثار وحفظاً للحديث ولأن البصريين اقلوا الرواية وتورطوا في الفلسفة والجدل واطرحوا الحديث ان يحتجوا به ولحنوا المحدثين .

لذلك أخذ الشيخ يعلم ولده كتاب النحو الذي تعلمه من قبل وهو « مختصر محمد بن سعدان الضرير الكوفي النحوي » المتوفي سنة ٢٣١ وكان هذا الكتاب مما يتدارسه الناشئون بالشام ويؤثره الفقهاء .

وكان بمدراس الشام موجز آخر يسمى « الجَمَل » الفه عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي وكان الزجاجي من أئمة النحاة وقصد إلى الشام واقام بطبرية وتوفي بها سنة ٣٣٩ هـ وترك له مدرسة وتلاميذ يدرسون كتابه « الجمل » فدرسه أبو العلاء .

وكذلك كان بالشام كتاب في النحو مختصر يسمى « الكافي » ورد اليهم من مصر ألفه الشيخ أحمد بن محمد المرادي المصري المتوفي بمصر سنة ٣٣٨ قالوا « كان شيخاً تقياً ورعا انتفع به خلق كثير » ونقل تلاميذه كتابه الى الشام فكان مما يدرس بها ولقيه أبو العلاء وقرأه ايضاً وقد بقيت هذه المختصرات تدرس بالشام الى أن جلس أبو العلاء بالمعرة استاذا يعلم الناس فعلمها لتلاميذه كما سنراه بعد .

انتقل هذا الفتى المستكثر من العلم الى «حلب» قالوا «دخل أبو العلاء حلب وهو صبي فقرأ بها على محمد بن عبد الله بن سعد النحوي » ولم يقولوا ما قرأ عليه ولكن ابن سعد لم يكن نحوياً ولا ذكر في النحاة وان سمي نحوياً وانما كان راوية لديوان المتنبي .

وكان شعر المتنبي متغنى أهل الشام وهتاف عاطفتهم وذاكر ايامهم فاحبه الشباب واحبه أبو العلاء ثم زاده فيه حبا ان معانيه لاءمت نفسه فأكب عليه جمعاً وحفظاً ثم قصد ابن سعد هذا الذي لقى المتنبي وسمع منه وحفظ عنه وعد راوية له ولكن الفتى كان أجمع لشعر المتنبي وأروى له من راويته .

قالوا « ان ابن سعد كان يروي من ديوان المتنبي قصيدته التي مطلعها » :

« أزائر يا خيال أم عائد »

فقال منها .

. . . . . أو مَوْضِعاً في فنان ناجبة

فرد عليه ابو العلاء — وقد اجتمع معه بحلب وهو صبي — وقال بل هو

او مُوضِعاً في فتان ناجية

فلم يقبل ذلك ابن سعد ومضى الى نسخة عراقية صعدت مع ابي علي بن ادريس من العراق فوجد القول ما قال ابو العلاء ولم تكن القصيدة مما قرأه على المتنبي ولكن مما بعث اليه .

فلم يجد أبو العلاء في حلب استاذا له لا في الرواية ولا في النحو .

وانما كان في حلب آثار مدرسة نحوية عظيمة أساسها أبو عبد الله الحسين بن احمد بن خالويه سنة ٣٧٠ وأبو الفتح عثمان بن جني المتوفي سنة ٣٩٢ ولهذه المدرسة اسلوب في البحث يتميز بعنايتها بالقرآن وجمع روايته وتوجيه ماسمى منها

شاذا وعمل الامامين في هذا الباب هو مرجع الدارسين له وقد تأثر أبو العلاء بأسلوب هذه المدرسة في البحث وان لم يلق احدا من أئمتها وألف كتابا سماه « تظلم السور » يتكلم فيه عن لسان السور وتتظلم كل سورة ممن قرأها بالشواذ ويتعرض لوجه الشاذ .

لم يفلح المعري في أن يلقى استاذا بالشام فانحدر الى بغداد على وعثاء الطريق وعناء الرحلة ومشقة السفر عليه خاصة ولكن لقاء الشيوخ كان من تمام العلم ولربما كان الرجل عالما مليئا ثبتا ثم عيب بانه لالقاء له وبانه صحفي لم يأخذ عن كبار الشيوخ .

بغداد ونحاتها

كانت بغداد تصطخب باصوات العلماء وعلماء النحو خاصة كان فيها قبيل مقدم أبي العلاء الامام ابو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي المتوفي سنة ٣٦٨ كان الى امامته في النحو فقيها قاضيا ورعا وشرح كتاب سيبويه فجاء اوسع شرح واسيره وابقاه الى الآن وهو يبلغ حجم « الكتاب » اضعافا ثلاثة أو أربعة والناس يحرصون عليه ويجاهدون في تحصيله ويتفاخرون باقتنائه .

وكان إلى جانبه ، الامام أبو علي الحسن بن أحمد الفارسي المتوفي سنة ٣٧٧ وكان يلقب سيبويه الثاني وقالوا « لم يشهد النحو بعد سيبويه اعلم به ولا أدق نظرا في قياسه من أبي علي » .

كان الشيخان يتنازعان رياسة النحو في الدنيا ولكل منهجه فأبو سعيد أكبر رواية وأوفر حظاً من الشعر واللغة والسماع وإن كان نحوه نحو البصرين وجدلهم وقياسهم .

والفارسي أدق نظراً وأصح قياساً وأغوص على أسرار العربية وكان يقول « اخطيء في خمسين مسألة مما تأتي به الرواية أحب إلي من ان أخطيء في مسألة واحدة مما يأتي به القياس » .

وكان إلى جانب هذين الإمامين الشيخ أبو الفتح عثمان بن جني المتوفي سنة ٣٩٢ وهو تلميذ الفارسي وفي طريقته . ثم الرماني علي بن عيسى المتوفي سنة ٣٨٤ وهو ذو طريقة وحده كان اعمق من الفارسي غوصا على القياس وعلته حتى كان الفارسي يقول .

« ان كان النحو ما بأيدينا فليس مع الرماني شيء منه وان كان النحو ما عنده فما بأيدينا منه شيء » .

كل هذا يبين عن كثرة المدارس النحوية وتفرع المذاهب ونشاط الجدل اللغوي ولكن ابا العلاء نزل بغداد وقد تخرمت المنية هؤلاء الأئمة . السيرافي سنة ٣٦٨ ، والفارسي سنة ٣٧٧ ، والرماني سنة ٣٨٨ ، وابن جني سنة ٣٩٢ .

فكأنما كتب له الايلقي مدارس النحو الا في أعقابها وكأن الموت كان يسابقه إلى لقاء الشيوخ .

كانت رياسة النحاة قد انتهت الى الشيخ علي بن عيسى الربعي المتوفي سنة ٤٢٠ وكان شيخاً كبيراً وكان اماماً واسع العلم ولكنه كان ضيق الصدر غير محمود العشرة ولم يكن لأبي العلاء بد من ان يقصد اليه ويحكون ان ابا العلاء منذ استأذن على الشيخ اذن له في عبارة تسيء اليه فكر راجعاً ولم يعد ولم يتلق عن الربعي شيئاً.

ونحن نعلم خلق الربعي وانه صرف عنه بعض النابهين من تلاميذه سئل ابن برهان « لِمَ تأخذ النحو عن أصحاب الربعي وتترك الشيخ وقد أدركته . فقال يمنعني جنونه وما تعلمون مني » . (انظر يا قوت . ترجمة ابن برهان) . وكذلك نعلم طريقة الربعي في الجدل النحوي واتباعه سبيل استاذه أبي علي الفارسي .

وكلا الامرين لا يلائم أبا العلاء فلم يكن من سبيل الى أن تطول الصحبة بينهما . وعندي ان أبا العلاء قصد الى الربعي وأخذ عنه قليلا ثم انصرف وابن العديم ينص على أنه تلقى عن الربعي . أما القصة فانها أبدعت في تصوير هذا النفور وسرعته وبت اللقاء كأن لم يكن لقاء .

لم يجد أبو العلاء اذن استاذاً له في بغداد كما لم يجد من قبل استاذا في الشام واضطر ان يطلب النحو من الكتب وان يكون قارئاً لامتلقياً.

وسنحاول ان نعلم ما اتصل به من كتب النحو وكيف اتصل بها ونرى كيف قدرها وقدر أصحابها .

الكتاب وسيبويه

نعلم من بعض رسائل المعري (ص ٢٦ مرجليوث) أن أبا العلاء كتب الى أحد أخواله — أبي طاهر بن سبيكة — يسأله أن يحصل له نسخة من « الكتاب »

ومن شرحه وان خاله لقي عناء في تحصيله وكأنه كتب اليه بما لقي فأرسل اليه المعري رسالة منها « وفهمت ما ذكره الشيخ من أمر النسخة المحصلة وهو — ادام الله عزه — الكريم المتكرم وانا المثقل المتبرم جرى في التفضل على الرسم والحت الحاح الوشم فاما الشرح فان سمح القدر والا فهو هدر . . . .

وكنت قلت في بعض كتبي الى سيدي ان كانت الخطوط مختلفة والابواب مؤتلفة فلا بأس يغني عن السرق ثوب من خلق ماعدا خطعلي بن عيسى فانه رجل اتكل على مافي صدره فتهاون في سطره .

وهو — ادام اللهُ تأييده — من الملامة في احصن لامة فلا يبعثه تعذر الحاجة على اللجاجة اهو الكتاب المكنون الذي لايمسه الا المطهرون انما هو اباطيل إياه وتعليل في ايام الحياة » اهـ

اما تقديره سيبويه رحمه الله فانه لم يزل يتعرض له بالنقد والتخطئة في مواضع من رسائله منها :

« ان ابن القارح سأل ابا ليلى نابغة جعدة كيف تنشد قولك:

فليس بمعروف لنا ان نردها صحاحا ولا مستنكرا ان تعقرا

أتقول — «ولا مستنكرا» ام «ولا مستنكرٍ» فيقول الجعدي بل «مستنكرا» فيقول الشيخ فان انشدكم منشد « مستنكرٍ » فما تصنع قال « أزجره وازبره نطق بامر لايخبره » فيقول الشيخ انا لله وانا اليه راجعون ما أرى سيبويه الا وهو في هذا البيت لان أبا ليلى ادرك جاهلية واسلاما وغذي بالفصاحة غلاما .

وامامنا سيبويه يذكر هذا البيت في كتابه (جـ ١ ص ٣٣)

ويجيز فيه «مستنكر» بالجر ويتكلم في توجيهه

ومثل هذا مانراه في سؤاله عدي بن سعد عن بيته :

ارواح مودع ام بكور انت فانظر لاي امر تصير

وأن سيبويه يزعم ان «أنت» يجوز ان ترفع بفعل مضمر يفسره قولك فانظر فيقول عدي بن زيد دعني من هذه الاباطيل .

وقد ينبغي ان نتلبث عند هذين النقدين قليلا ففيهما أصلان يرجع اليهما اكثر ما

نقده ابو العلاء من نحو البصرة الاول أن نحاة البصرة بقياسهم قد قولوا العرب مالا يقولون وأجروا على ألسنتهم غير ما يرضون .

والثاني انهم تكلفوا في توجيه الكلام وتخريجه بما اوقعه في الاباطيل .

واذ كان هذا يبين عن رأي أبي العلاء في سيبويه وفي الكتاب فلنحاول أن نتعرف الى رأيه في أبي سعيد والشرح .

السيرافي وشرحه

طلب أبو العلاء شرح السيرافي من خاله أبي طاهر مع الكتاب كما قرأنا في الرسالة السابقة وقال في تقديره « أما الشرح فان سمح القدر والا فهو هدر » .

وطلبه ايضا من صديق له آخر هو أبو عمر الاسترابادي وكأنه لقي في تحصيل الشرح عناء ايضا كما يفهم من رسالة أبي العلاء (ص ٣٨ مرجليوث) .

« كان أيسر من عنائه في ذلك قذف الشرح في سيح . . .

انما هو افانين كلام اصبح وهو مجموع المقيس فيه والمسموع لايخلد من رواه قد عاش الناس بسواه . . . ولا أقول لمن غاب ريش سهمه اللغاب ولا اقول لكتاب ابي سعيد — « اولئك ينادَوْن من مكان بعيد » بل انا من التثقيل حذر ، مشفق من ذلك معتذر ، وانما سالت أن يستسمد برائه لقلة نظرائه وهو عندي أجل والكتاب أيسر وأقل من أن يكلف خطوات ولو كن كديب القطوات » .

وأبو العلاء لايزهد في الشرح زهده في الكتاب ولا يجعله كما جعل الكتاب « اباطيل إياه » وانما اشفق من التثقيل وعاب من الشرح انه « أصبح وهو مجموع المقيس فيه والمسموع » وأبو العلاء يضيق بالقياس صدرا ولا يعدل بالمسموع شيئاً ولكن الشرح مع مافيه من القياس غزير الرواية والشيخ أبو سعيد فياض الاستشهاد وذلك اغرى أبا العلاء بتحصيله .

أما الرأي في أبي سعيد فانك قد تراه في ثنايا مانقص عليك قال ابو سعيد في الجزء الاول من الشرح عند ترجمة سيبويه « باب مايكون في اللفظ من الاعراض » مانصه :

حضرتُ أبا بكر بن دريد وقد أنشد أبياتا تنحل آدم وهي :

تغيرت البلاد ومن عليها فوجه الارض مغبر قبيحُ
تغير كل ذي لون وطعم وقل بشاشةُ الوجهِ المليحِ

فقال ابو بكر أول ماقال الشعر أقوى فقلت له انشاد البيتين على وجه لايكون فيه اقواء وانما هو :

.... وقلّ بشاشةَ اوجهُ المليحُ

على تقدير وقل بشاشةً فتحتين وجعل يستشهد لحذف التنوين في هذا الموضع اذا تلاه ساكن بشواهد عدة من الشعر ومن القرآن الكريم ثم قال وحذف التنوين عند الالتقاء بساكن غير داخل في ضرورة الشعر وقد رأيت بعض من ذكر ضرورة الشعر أدخل فيه حذف التنوين وهو عندي ليس كذلك . ا هـ . من تفصيل لمعري وفيّ رويّ .

وابو العلاء يعرض لهذه القصة حين يلتقي ابن القارح بابينا آدم ثم يقول مانصه : قلت انا هذا الوجه الذي ذكره ابو سعيد شر من اقواءٍ عشر مرات في القصيدة الواحدة اهـ. (رسالة الغفران ص ١٠٩ و ١١٠) .

ابو علي الفارسي وكتبه

ونحن مضطرون ان نطيل عليك بنقل من نص رسالة الغفران ص ٥٧ لتعلم تقدير أبي العلاء للفارسي وكتبه .

« قال ابن القارح : وكنت قد رأيت في المحشر شيخاً لنا كان يدرس النحو في الدار العاجلة يعرف بأبي علي الفارسي وقد امترس به قوم يطالبونه ويقولون تأولت علينا وظلمتنا فلما رآني أشار بيده فجئته فاذا عنده طبقة منهم يزيد ابن الحكم الكلابي وهو يقول ويحك أنشدت علي هذا البيت برفع «الماء» يعني قوله :

فليت كفافاً كان شرك كله وحيرك عني ما ارتوى الماءُ مرتوي

ولم أقل إلا « الماءَ » . وكذلك زعمت اني فتحت الميم في قولي :

تبدل خليلا بي كشكلك شكله فاني — خليلاً صالحاً بك — مَقتوي

وإنما قلت «مُقتوي » بضم الميم . وإذا هناك راجز يقول تأولت عليّ أني قلت:

يا إبلي ما ذنبه فتأبِيَــــهْ ماء رواء ونصيّ حوْلِيَهْ(١)

(١) يروي هذا البيت أبو سعيد في الشرح :

يا ابلي ما ذامه فتابيَهْ ماءٌ رواءٌ ونصيٌ حوْليَهْ

شاهداً على تثنية « حول »

فحركت الياء في « تأبيه » ووالله ما فعلت ولا غيري من العرب

وإذا رجل آخر يقول أدعيت علي أن الهاء راجعة على الدرس في قولي :

هذا سراقة للقرآن يدرسه والمرء عند الرشى أن يلقها ذيب

أفمجنون أنا حتى أعتقد ذلك . وإذا جماعة من هذا الجنس كلهم يلومونه على تأويله . فقلت يا قوم ان هذه أمور هينة فلا تفتنوا هذا الشيخ فانه يمت بكتابه في القرآن المعروف « بالحجة » وانه ما سفك لكم دماً ولا احتجن عنكم مالاً فتفرقوا عنه وشغلت بخطابهم والنظر في حويرهم فسقط مني الكتاب الذي فيه ذكر التوبة فرجعت اطلبه فما وجدته فأظهرت الوله والجزع » اه .

فهو يخطئه في روايته ويكره منه تأويله ويزعم أنه يقوّل العرب ما لم يقولوا ويحمل كلامهم ما لم يريدوا وانه انما يرضى من عمله (كتاب الحجة) وهو في اعراب القرآن وتوجيه قراءاته .

وكذلك انصرف المعري عن بغداد لم يتلق عن أحد من ائمة النحو بها وقرأ كتبهم فضاق صدراً بما فيها . وكان أشد ما ضاق به التكلف في التأويل والغلو في التعليل والمضي مع القياس مضيا يراه المعري منتهياً الى أن يجيز في العربية ماليس منها

تدريسه النحو بالمعرة

عاد أبو العلاء الى المعرة واستقر بها استاذا فماذا علمهم من النحو ؟

جعل يعلم من شاء منهم كتب النحو الموجزة التي تعلمها من قبل في المعرة وفيما حولها من بلاد الشام وهي .

(١) الجمل — للزجاجي — (٢) الكافي — للنحاس (٣) المختصر — لابن سعدان .

وجعل يؤلف الكتب شرحاً لها أو بياناً لشواهدها . فألف لكتاب الجمل :

(أ) — عون الجمل (ب) — اسعاف الصديق

وألف على « الكافي » كتاباً سماه « قاضي الحق » . وعلى مختصر ابن سعدان كتاباً سماه « المختصر الفتحي » ألفه لأبي الفتح ابن كاتبه .

فان املى كتاباً مبتدئاً به فهو على مثال هذه الكتب من الايجاز — وعلى هذا الف كتاب « الحقير النافع » كتاب مختصر في خمس كراسات . ثم ألف كتاباً

يتصل به سماه « الطل الطاهري » كتبه لأبي طاهر المسلّم بن علي من رجال الدولة وهو قريب في الحجم من الكتاب الأول وقد يخلط الكتابان كتاباً واحداً.

لم يؤلف كتاباً موسعاً ولا تعرض لهذه الكتب النحوية المطولة التي اتصل بها في بغداد إلا أن يكون كتاب سيبويه هم بشرحه فشرح قليلاً منه أو من شواهده ثم انصرف عنه ولم يتممه.

وكان يملي هذه المختصرات ويهديها إلى أصدقائه أو إلى أحد من رجال الدولة قضاء لحق أو جزاء على معروف أو براً بصاحب كما ترى في تسمية كتبه « اسعاف الصديق » و « قاضي الحق » وكما نقرأ في اخباره فني ترجمته في كثير من الكتب التي ترجمته — « قال الشيخ أبو العلاء لزمت مسكني منذ سنة أربعمائة واجتهدت أن أتوفر على تسبيح الله وتمجيده إلا أن اضطر إلى غير ذلك فأمليت أشياء وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الله بن أبي هاشم أحسن الله معونته فألزمني بذلك حقوقاً جمة وأيادي بيضا لأنه افنى فيّ زمنه ولم يأخذ عما صنع ثمنه والله يحسن له الجزاء ويكفيه حوادث الزمن والأرزاء » اه.

وقد كتب لولد هذا الشيخ كتابين في النحو « المختصر الفتحي » و « عون الجمل » قالوا وكان هذا الكتاب آخر ما أملاه الشيخ وما شغله من التأليف رحمه الله.

الخلاصة

طفنا مع أبي العلاء حيثما اتصل بالنحو متعلماً أو معلماً قارئاً أو مملياً ورأينا أنه لم يتلق عن أستاذ يحترمه ويقدره ويتأثر بتوجيهه إلا أن يكون أباه فقد وجهه إلى نحو الكوفيين وحببه في الرواية والسماع ثم أورثته المدرسة الشامية الميل إلى إعراب القرآن وإلى توجيه قراءاته.

أما في بغداد فقد نفر من المدارس النحوية البصرية وضاق بما فيها من قياس وتعليل وجدل.

ولما عاد إلى المعرة اكتفى أن يعلم من النحو المختصرات أو يملي الجمل وأخذ يبث في رسائله نقده لمذاهب البصريين ومافيهامن تعليل وتكلف في التأويل.

أما اجتزاء أبي العلاء بالمختصرات والجمل فقد يكون مذهباً تعليمياً نافعاً

وقد يصلح لمن شاء أن ينال من النحو حظاً ثم ينصرف إلى غيره مما قد يحتاج إلى النحو كالفقه والأدب . أما من شاء النحو على أنه فقه اللغة وكشف أسرارها وخصائصها وتعليل قوانينها ومجاريها فان ذلك لا يجديه شيئاً ولا يصله بشيء .

وأما نقد أبي العلاء للنحاة للمبالغة في التعليل والتكلف في التأويل فقد يكون له من ذلك ما ينقده على أنه نقد لم يكن دقيق المسلك ولا خفي المكان وكل ما ابتدعه المعري هو أسلوبه الشعري في هذا الانتقاد .

وأستطيع الآن أن أقرر مطمئناً أن أبا العلاء كان عالماً بالنحو وأن أقرر — كذلك — أنه لم يكن نحوياً ولا أراد أن يكون نحوياً وإنما كان ناقداً لغوياً درس النحو فعابه وضاق به وانصرف عنه واكتفى من قواعده بما يمكنه من العمل الذي وافق هواه وساير طبعه وهو — النقد — ونظرات في مثل (عبث الوليد) أو (ذكرى حبيب) تبين أنه انصرف إلى النقد ولم يعن بمسائل النحو ولا بتخريج النحاة .

من بعد أبي العلاء

لم يذهب مع الريح نقد أبي العلاء للنحاة وأسلوبه الشعري الذي اتبعه في النقد زاد من أثره فشاع وتندر الناس به .

ولو أنه كان نقداً أعنف من هذا وأعمق بحثاً ثم مضى في بطون الكتب النحوية لما بلغ هذا المدى من الذيوع ومن الأثر .

نرى عقب زمن أبي العلاء عَرَضاً ظاهراً في كتب النحو — وكتب الأئمة منهم — يبدؤون كتبهم بالدفاع عن النحو والذود دونه ذوداً عنيفاً يرى أنه درء لهجوم قوي مرّ .

فالامام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧٤ يبدأ دلائل الاعجاز — وهو كتاب يعده الجرجاني ونعده معه كتاباً في النحو — يبدأ هذا الكتاب بجدل قوي لمن زهد في النحو واحتقره واصغر أمره وتهاون فيه — وان صنيع هؤلاء أشبه بالصد عن كتاب الله وتعرف معانيه ثم يُفصل ما عابوه من النحو بما لا يبعد مما نعد به ابو العلاء — (وانظر تفصيل ذلك في اول الدلائل) .

والامام ابو القاسم محمد بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨ يبدأ كتابه « المفصل » بمثل هذا الدفاع ويجعل الذين يغمصون من العربية ويضعون من مقدارها ويريدون ان يخفضوا ما رفع الله من منارها لايبعدون عن الشعوبية منابذة للحق الابلج وزيغا عن سواء المنهج وذلك لأنهم لايجدون علما من العلوم الاسلامية فقهها وكلامها وتفسيرها واخبارها الا وافتقاره الى العربية لايدفع ويرون الكلام في معظمها مبنيا على علم الاعراب . . . .

والزمخشري رحمه الله يتحكك بابي العلاء في مواضع اخرى ففي تفسيره للمرسلات عند آية « ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالات صفر » . جلب ذكر أبي العلاء لأدنى مناسبة — كما يقول النحاة — فذكر بيت المعري :

حمراء ساطعة الذوائب بالضحى ترمي بكل شرارة كطراف

وجعل يعيب المعري ويلمزه لسوء تشبيهه وهو ظاهر التجانف والميل . وتعودنا من الزمخشري رحمه الله ان يعرض لخصوم المعتزلة وليس ابو العلاء منهم ولكن الزمخشري كان رجلاً أديباً قرأ رسائل المعري وفطن لموقعه من النحاة فحمله كرهه على التحرش به .

وهذه الخصومة النحوية قد جنت على ابي العلاء ايضا فان النحاة اهملوا شعره وندر جداً ان تعرضوا له بشرح أو استشهاد أو نقد وقد عنوا بشعر ابي تمام والمتنبي لما فيهما من تصرف في اللغة وفي الاساليب النحوية وقد كان في شعر ابي العلاء من ذلك مايغريهم بدرسه ولكنهم اعرضوا عنه .

وأظهر من هذا اعراضهم عن كتبه في النحو فلم يدرسوها ولا نقلوا عنها حتى لم يبق منها كتاب ولا أثر من نقل . وتلك خصومة جنت على المتخاصمين ولم يجن العلم منها شيئاً .

ولقد أرى أن ابا العلاء فكر في النحو بالطبيعة التي فكر بها في كل امور الحياة يحس العيب — فيما يراه عيبا — فيعبر عنه ويندد به وربما التزم ان يتجنبه ويعصم نفسه منه ولكن رأيه في اليأس والقنوط يمنعه ان يثور الى شيء من الاصلاح .

واذا ما نهض النحو — واظنه ينهض — فانه سيشهد ان النحاه المتقدمين والبصريه منهم خاصة قد ابلوا في كشف اسرار اللغة ووصلوا من فقهها الى قيم كثير وان آثارهم قد طمت تحت ركام من الاعراض والفتور وان ابا العلاء كان شيئاً مما فتر الناس عنها ...

* * *

وكتب بالاسكندرية في رمضان من سنة ١٣٦٣ وقدم الى المهرجان الألفى المقام لأبي العلاء في سورية وأملاه

ابراهيم مصطفى

« مندوب جامعة فاروق الأول »